۱۶۵۷۵

مجلّه	الازهر
تاریخ نشر	شوال ۱۳۹۱
شماره	۸ سال ۴۳
شماره مسلسل	
محلّ نشر	قاهره
زبان	عربی
نویسنده	محمد رجب البیومی
تعداد صفحات	۷۲۸-۷۲۳
موضوع	عدل الاسلام وظلم علی الیهود
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

عدل الإسلام وظله على اليهود

للدكتور محمد رجب البيومى

كان نفر من الباحثين الاجتماعيين يرون فى الارتقاء المادى لأمة من الأمم مقياسا لرقيها الإنسانى ، ودليلا على تقدمها المعيشى ، حتى انتقض ذلك بما تمخضت عنه الحضارة الأوربية من حروب مدمرة ، واستعمار ظالم ، وإذا كانت هذه الحضارة بعض آثار العلم فإن ارتقاءه اليوم لا يصلح كذلك أن يكون مقياس الرقى المأمول للإنسانية ! ولأن يعيش الناس فى عصر الجمل والسفينة الشراعية سالمين مسالمين خير من أن يعيشوا فى عصر الفضاء والقمر متناحرين ، وقد تكون الحرب مأساة كل عصر فى القديم والحديث ، إلا أن خطرها فى عهود التقدم العلمى من الجسامة الفادحة بحيث لا يقاس به ما كان من خطرها فى سالف العهود ! لذلك اتجه الباحثون عن مقياس الرقى إلى العامل الخلقى للأمة ، فهو وحده آية التقدم المنشود ! فإذا قام نظام الأمة على أساس من الخلق القويم فقد ضمنت علاج أكثر الشرور ، وحرصت على أن تمد للإنسانية يداً بيضاء تعمل على رأب الصدوع وبرء الجراح .

نقول ذلك لنمهد للغرض الذى نريده من تسطير هذا المقال ، فقد دأب نفر من السطحيين عن غرض أو غير غرض على ترديد ما يزعمه بعض المستشرقين من أن جماعة اليهود بالمدينة على عهد الرسول كانوا على نمط حضارى متقدم ، أتاح للمسلمين أن يأخذوا عنهم كثيرا من تعاليمهم الاجتماعية والثقافية والدينية ؛ واشتط بعضهم فذكر فروقا يزعمها بين الوحى المدنى والوحى المكى ؛ ليؤكد تأثير التشريع المدنى بهؤلاء الحضاريين المتقدمين ؛ ونخوض فى حديث معاد إذا حاولنا أن نرد على هذا الإفك الصارخ فقد نهضت أقلام مخلصة إلى تفنيده ؛ بل خصه الأستاذ الكبير محمد أحمد عرفه بكتاب خاص تحت عنوان « نقض مطاعن فى القرآن الكريم » ، ولكننا نريد الآن أن نوضح العامل الخلقى لدى يهود المدينة على عهد النبوة مقرونا بخلق الإسلام

الصريح في نصوصه الواضحة ، ليرى القراء أن ما ذهب إليه اليوم باحثو الاجتماع من تقدير العامل الخلقي كأساس أصيل للتقدم الإنساني يقدم للمنصفين أروع الصور الزاهية عن رقى الإسلام وازدهاره كما يقدم في الوقت نفسه صورة معتمة لأناس تنحدر فيهم القيم الخلقية إلى أحط دركات الأنانية ثم يجيء غلاة المتعصبين فيزعمونهم أصحاب الارتقاء الإنساني والثقافي في جزيرة العرب ، ويجدون من أبواق المسلمين أنفسهم من يتبنون أكاذيبهم الدنيئة فينشرونها غير عابئين .

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

وقد ذكر المفسرون في شرح هذا النص الكريم أن المراد به بيان حال عجيبة من أحوال بعض أهل الكتاب وهم اليهود ؛ إذ كانوا يخونون الأمانة ، ويستحلون أكل أموال من ليس من الإسرائيليين غرورا في الدين وتأويلا في الكتاب حين يزعمون أن ليس عليهم في الأميين - وهم العرب - جناح في ابتزاز أموالهم بشتى الطرق ، إنما يكون الجناح الآثم في ابتزاز أموال الإسرائيليين وحدهم ، فهم الشعب الممتاز الجدير باحترام ماله ودمه ! ثم يشتطون فيزعمون أن ذلك حكم الله الذي جاءت به التوراة فيقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون أن توراتهم محرفة وأن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة .

هذه التفرقة الأنانية في التعامل المادي بين اليهود وغيرهم تدل دلالة قاطعة على انتفاء العنصر الخلقي في النظر اليهودي وتؤكد أن جماعة كهؤلاء يسيئون للإنسانية أبلغ إساءة إذا تصدروا ركبها الحضاري ، فحقوق الإنسان مهدرة لديهم غير مصونة إلا أن يكون آدميا إسرائيليا ! وإذا أخذت كل أمة بمثل هذا المبدأ فلن يكون سلام .

وإذا وهم غير المسلم أن ماذكره القرآن الكريم عن أنانية اليهود الشرهة غير متأكد فإننا ننقل له نص التوراة الذى يستندون إليه فى ذلك كما جاء فى سفر التثنية ٢٣ .

« تقول التوراة على لسان موسى فيما أمره به ربه ، لا تقرض أخاك ربا : ربا فضة ، أو ربا طعام ، أو ربا شيء ما مما يقرض ربا، للأجنبي تقرض ربا، ولكن لأخيك لا تقرض ربا ، لكى يبارك الرب إلهك كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل لتملكها » .

فهذا النص الثابت فى سفر التثنية مما يطابق قول الله عز وجل عنهم : « ليس علينا فى الأميين سبيل » ، ولا نريد أن نستطرد فننقل عن أحبار اليهود أقوالا كثيرة تثبت اختصاصهم وحدهم بالخير، وتنظر إلى من سواهم نظرة الالتهام الشره فكل ذلك أصبح من المسلمات الذائعة وقد استحال إلى برامج عملية تقوم الدولة الصهيونية الآن فى فلسطين بتنفيذها غير عابئة برأى عالمى ، أو سمعة دولية ! فكل الأمم فى اعتبارهم دون الشعب المختار .

وإذا كان الإسلام يعامل مخالفيه ، كما يعامل مناصريه ، ملتزما الحق ، ومستجيبا إلى نوازع الضمير الإنسانى فى كل تشريع يرتئيه ؛ فليس من شأننا اليوم أن نسهب فى ذلك ولكننا نشير إلى حادثة حكاها القرآن لنقدمها صورة وضيئة لإنصاف الإسلام ! ولنقف من نص التوراة السابق موقف النقيض .

قال الله تعالى فى سورة النساء : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ؛ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما ؛ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ؛ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ؛ ها أنتم هؤلاء جادلتهم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا ؛ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ، ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ؛ ولولا

فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ومايضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » .

روى ابن جرير ، عن قتادة فى سبب نزول هذه الآيات ما فحواه أن رجلا من الأنصار يسمى طعمة بن أبيرق سرق درعا لعمه ثم خشى افتضاح أمره فرمى بالدرع على منزل يهودى بالمدينة يقال له زيد بن السمير ، وجاء قوم طعمة فاتهموا اليهودى ليبرءوا ذمة صاحبهم ، ثم تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدا له أن اليهودى هو السارق حسبما صوره له قوم طعمه ولكن الله عز وجل شاء أن يفضح الباطل فأنزل هذه الآيات القاطعة فى براءة اليهودى واتهام الأنصارى ، وأنت حين تستعرض النص القرآنى تجد من عدالة التشريع النزيه مالا تكاد تجد له نظيرا فى أى دستور متعارف ، فقد أعلن الله تعالى أنه أوحى الكتاب لنبيه ليحكم بين الناس بالحق ، فيما أراه الله .

قال صاحب المنار فى الجزء الخامس من تفسيره ص ٣٩٧ ط ثالثة : « ظاهر الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم مال إلى تصديق المسلمين وإدانته اليهودى لما كان يغلب على المسلمين فى ذلك العهد من الصدق والأمانة ، وعلى اليهود من الكذب والخيانة ، ولذلك قال العلماء فى القديم والحديث أن أولئك المسلمين لم يكونوا إلا منافقين ؛ لأن مثل عمل طعمة وتأييد من أيده فيه لا يصدر عمداً إلا عن منافق وتبع ذلك أنه صلى الله عليه وسلم ود لو يكون انبلج بالحق فى الخصومة للمسلمين الذين يرجح صدقهم فأراد أن يساعدهم على ذلك ، ولكنه لم يفعل انتظارا لوحى الله تعالى فعلمه الله بهذه الآيات أن الاعتقاد الشخصى والميل الفطرى والدينى لا ينبغى أن يظهر لهما أثر ما فى مجلس القضاء ولا أن يساعد القاضى من يظن أنه هو صاحب الحق ، بل عليه أن يساوى بين الخصمين فى كل شيء واذا كان هذا هو الواجب ، وكان ذلك الميل إلى تأييد من غلب على الظن صدقه يفضى إلى مساعدته فى الخصومة فيكون الحاكم خصيما عنه لو فعل ، وإذا كان طلب الانتصار لهم من الخائنين فى الواقع ونفس الأمر فى هذه القضية

فقد وجب الاستغفار من هذا الاجتهاد ومن حسن الظن ، ثم عجب القرآن لهؤلاء الذين يريدون أن يبرءوا ذمتهم أمام الناس ولا يريدون أن يبرءوا ذمتهم أمام الله إذ يبيتون مالا يرضى من القول حين واجهوا الرسول ببراءة طعمة وشهدوا على اليهودى بالسرقة لوجود الدرع فى منزله

وإذا كانوا قد جادلوا عن الخونة حتى لبسوا الأمر على الناس فى الحياة فمن يستطيع أن يجادل عنهم يوم القيامة والله مطلع على السرائر فلا ينفع لديه تمويه وادعاء .

ثم خلصت الآيات إلى الحكم الصريح القاطع بأن من يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ، وموضع الشاهد فى هذه الآية هو قول الله (يرم به بريئا) أى أى برىء من أى دين أو أى مكان أو أية طائفة ! فالحق لا يختلف باختلاف الناس كما زعمت اليهود ، ولكن الحق سيد الجميع ! ثم والى القرآن تأكيده الجازم فخاطب الرسول بقوله : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » هاتان صورتان متقابلتان تنطق أولاهما بالأثرة الوبيئة والتعصب الأعمى لدى اليهود ، وتنطق أخراهما بالحيدة المنصفة ، والمساواة العادلة بين الناس كافة لدى المسلمين ، وقد اطرد تاريخ الفريقين فيما تتابع من العصور على نحو مارسمته الصورتان المتقابلتان ، فكان اليهود مثال الابتزاز الدنىء والأثرة الملحفة وقد شق عليهم أن يبعث الله نبيه من العرب فيصيروا أصحاب سلطان تخضع له بنو اسرائيل وكذلك ما يزالون منذ البعثة النبوية يضعون الخطط الظاهرة والمستترة لامتلاك الأرض المقدسة حتى سمحت الظروف التعيسة لهم بوعد بالفور وما أعقبه من عمل الإنجليز على التمكين لهم فى احتلال فلسطين جزءا جزءا ، وقد كنت أقرأ فى تفسير المنار عند قول الله عز وجل عن هؤلاء « أم لهم نصيب من الملك فإذن لا يأتون الناس نقيرا » فراعنى أن أجد السيد محمد رشيد رضا يشرح الآية الكريمة منذ ستين عاما وكأنه يرى من

دستور الغيب ما حدث بعد كارثة العالم العربى فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م حيث يقول بالجزء الخامس من المنار ص ١٥٩ ط ثالثة ما نصه :

« وحاصل المعنى أن هؤلاء اليهود أصحاب أثرة شديدة وشح مطاع يشق عليهم أن ينتفع منهم أحد من غير أنفسهم فإذا صار لهم ملك حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره، فإن تم لهم ما يسعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس وما حوله ، فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة ولا يعطونهم منها نقيرا من نواة أو موضع زرع نخلة أو نقرة فى أرض وجبل » .

هذا ما أطرد عليه تاريخ اليهود منذ البعثة إلى يومنا هذا ، وهو كما ترى يدور فى إطار التعصب الأنانى الذى أشار النص القرآنى الأول إلى صورة منه، أما ما اطرد عليه تاريخ المسلمين فما لا يخرج عن إطار النزاهة العالية التى أشار النص القرآنى الثانى إلى صورة منها ، فحين فتح المسلمون بلاد الشام وإفريقية والأندلس أنقذوا شراذمهم المضطهدة وساووهم بالمسلمين فى جميع الحقوق حتى كان منهم بعض الوزراء وكبار الأطباء والتجار وأرباب المال ؟ وكانوا فى الزمن القريب يفرون من أوربا إلى بلاد الخلافة الإسلامية ليستنشقوا ريح الأمن ، وما زالت الحيلة تسعفهم كيدا ومكرا وخيانة حتى قامت دولتهم الآثمة وأتيح لها أن تنتصر بعض الوقت ، فكان ما كان من نسف الدور ونهب المتاجر، وقتل الأرواح ، وتشريد آلاف اللاجئين حتى ليجوز لنا أن ننشد متحسرين :

ملكنا فكان العفو منا سجية
فلما ملكتم سال بالدم أبطح

د . محمد رجب البيومى

١٦٥٧٥